طريقنا إلى الاصلاح الاجتماعى

فضيلة القوة

للأستاذ مصطفى الصاوى

المدرس بالأزهر

لعل أول ما يجب أن نتوجه إليه فى إصلاحنا الاجتماعى هو التمهيد لخلق فضيلة القوة التى هى — كما أعنيها — جماع لفضائل ومقومات تنهض بالشعب بعد أن كبا وارتكس وتحطمت ذاتيته وأصبح مجموعة متناقضة لا تتسق فى نظام . ولا تربط بينها وحدة. ولا تعمل على طريق يسير بها الى غاية .

وهذه القوة التى أعنى لا تقوم على القهر والغلبة والسيطرة ، ولا تحويل الشعب وموارده إلى جندى ومدفع بمقدار ما تقوم على تكوين الذاتية الشعبية التى تجعل الشعب ذاته صالحا لكل شىء مسايرا لكل توجيه . وحينئذ يمكن أن نجد فى طبيعته استماعا لأقوال الدعاة واستجابة لصيحاتهم ثم دءوبا فى السعى الحثيث لإدراك ما يريد . ويريد له قادته وأصحاب الرأى فيه .

ولتحقيق فضيلة القوة هذه لا بد لنا من مراجعة ماضينا الخلقى والاجتماعى والوقوف المتأنى عند عصور الانحلال نتلمس فيها ما أصاب الشعب وما فرضته عليه عوامل هذا الانحلال من تحول فى الأخلاق وتحطم فى الجماعة . والوقوف وقفة المتأنى كذلك عند عصور النهضات نتدارس ما تركته فى نفوس الناس من آثار وما اتجهت إليه الموجة الخلقية فى ذلك الحين ثم الاتزان الكامل والروية والأناة فى الحكم فلا يستخفنا مجد فنصيح ، ولا تدهم أحلامنا حقيقة منحلة فنيأس . ولنا بعد هذه الدراسة أن نرجع إلى مجتمعنا اليوم نتفحص حالته على هذا الضوء الجديد ، ونحاول جاهدين أن نتقبل الحقائق المجردة دون تزويد أو ستر حتى نستطيع أن نحكم الخطة ونسدد الخطو .

أول ما نلمح من مظاهر الانحلال فى الشعوب فقدان الثقة بالنفس ، وانعدام الذاتية المسيطرة المتمكنة التى تفعل لأنها أرادت ، وتنتصر لأنها صممت على الانتصار برغم ما قد يعتور قواها المادية من ضعف أو فتور .

والأساس الأول لخلق هذه الزيادة وذلك التصميم هو إدراك الشعب لحقائقه الإيجابية إدراكا كاملا، وشعوره بكرامته شعورا ينتقل به من حيز النظريات إلى تحقيقها عمليا . يعد كل هزيمة فى سبيل النجاح درسا جديدا لطريقة الكفاح يعرف فيه مقدار خطئه ومداه فيتلافى خطأ الأمس ثم يقبل على كفاح جديد يزيد فيه مالقيه من مقاومة ، وما قدمه من تضحية .

وكما نلمح فقدان الثقة فى الشعب المتحلل نلمح فيه كذلك مظهرا خلقيا ممتكينا يحول فضائله ويمسخها ويشوه كل ما فيها من جمال حتى لتصبح هذه الفضائل فى ثوبها الجديد من أشد أمراض المجتمع فتكا به ، فهى لا تزال تستتر بثوب الفضائل الفضفاض ، وتتمتع بالتمكن من النفوس .

هذا المظهر هو الجنوح إلى الفضائل السلبية وتمجيدها والتنكر للفضيلة الإيجابية واعتبارها رذيلة وحمقا .

ففى عصر كهذا الذى نحن فيه لا نكاد نرى شبحا لعملية التعاون بينما نرى الأثرة تتغلغل فى كل أعمالنا كما لا نجد الحرص على مظهر الجماعة يشغل قلوب أفراد هذه الجماعة ، بل لقد نجد من يقوم إنسانا لأنه دعا إلى خير أو نهى عن منكر جاهلا أن تلك طريقة لا تتفق فى شيء مع أيسر شرائع الاجتماع فضلا عن دين كالإسلام يعتبر المؤمن والمؤمن بنيانا متراصا وجسما واحدا إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر . ١

كما نرى مبدأ (الغاية تبرر الوسيلة) الذى أصبح مبدأ شعبيا عاما . ولو تفهمت هذه الغاية وأحيطت هذه الوسيلة بهالة تحطم فيها الذاتية والكرامة والخلق وجميع المعانى السامية التى قدمتها الأديان وشرائع الاجتماع . ونجد فى جانب فضيلتى التواضع والقناعة وفى الجانب الآخر لا نجد فضيلة الشجاعة والنجدة وحماية الضعيف إلا حديثا سيارا وقصة جميلة الحبك بالغة العظة تدفع الألسنة إلى التهليل والتمتمة ، ولكنها عاجزة كل العجز عن أن تكون موجهة للشعب إلى العمل بها ولو إلى حد صغير . ولو وقف الأمر عند ذلك لهان بعض الشيء ولكن ما ذكرت من تشويه الفضائل الإيجابية أشد خطرا وأنكر نتيجة : فالشجاع لدينا متهور ، وناصر الضعيف متدخل فيما لا يعنيه ، والمعتز بكرامته حين يرفض أن يعيش بماء وجهه لا يعرف أساليب الحياة ولم تصقله الأيام بعد صقلا يساير روح العصر ويتسق مع الاجتماع الذى يعيش فيه ، حتى أصبحت طبيعة هذا الاجتماع مهيأة للكبوة والانحلال فاكتنفت ألسنة الناس حكم وأمثال تهبط بهم إلى قرارة سحيقة وتحطم فيهم كل معانى الطموح والشعور بالذات وإليك طائفة من هذه الأمثال :

(اللى يجوز أمى أقول له ياعمى) (إن عبد الناس عجل حش وارمى له) (إن كان لك عند الكلب حاجه قول له ياسيدى) إلى غير ذلك مما يترجم عما يخالج هذا الشعب من انحلال

[illegible]

حين ترجع الى دواوين خطباء المنابر من عصر غير بعيد وهم وحدهم "الألسنة الناطقة فى ذلك العهد فلا تجد فيها غير الحديث المتهالك الذى لا يبشر بأمل ولا يقود فى حماسة الى حق الشعب عن طريق فضائل الايجاب واحيائها فيه ، فكل مالديهم تواضع وصبر و زهد ورضا بما قسم الله وتخويف من نار وترغيب فى جنة ، هما وحدهما دافع العبادة لا ما فى العبادة نفسها من معنى روحى خالد يصلح حال الفرد ويقوم الاجتماع .

وأنا أومن أن هذه الفضائل الايجابية قد شرعها الدين لتكون الأسلوب العملى لتكوين الاجتماع ، وأن الفضائل السلبية لا تكون غير ضوابط لهذه القوة الدافعة فهى (كمصحة) الحريق لا تفتح إلا حين تندلع ألسنة اللهب ولا تستعمل الا حين تدعو الضرورة إلى استعمالها .

هذه حقيقة فضيلة الايجاب وفضيلة السلب ولكن الأفكار فى عصور الانحلال تتلى دائما بداء الرضى والاستسلام فتجعل تلتمس أسماء لهذا الضعف حتى تجد فى خداع الأسماء بعض التسلية .

وهنالك مظهر آخر من مظاهر الانحلال يتصل بما قدمت من انعدام الذاتية فى الشعب وذلك المظهر هو الفكرة التى تقوم فى أذهان بعض ذوى العقلية من أن لبعض الأجناس من حق السيادة والتحكم نتيجة لما وهب الشعب من مزية فى الخلق والخلق ما يجعل بعضها الآخر راضيا بالذلة مستسلما للهانة لا يقوم فى رحابه أن يتخلص من استعباده سياسيا وفكريا واجتماعيا ، فهو خاضع عن رضاه فى حياته السياسية خاضع فى حياته الفكرية لا يكاد يؤمن علماؤه ولا ساسته بحقهم فى البحث ولا يقدر الشعب نفسه ما يقدمه اليه العلماء والساسة ، وخاضع كذلك فى الاجتماع فهو ينقل عن غيره ويقدس ما ينقل ولا يعمل فيه فكره ولا يوفق بينه وبين تقاليده وانما يعتسف طريقه اعتسافا .

وفكرة الأجناس كما يبدو لى قد استغلت استغلالا سياسيا ترك فى أذهان بعض الشعوب أنها لا تصلح لغير حياة ذليلة تعيش فيها عالة على غيرها فى كل شىء . وعندى أن المقدرة لا توهب لجنس دون آخر وكل ما بين الشعوب من فروق لا يعدو أن يكون أحدها قد وجد من يحرص له على أخلاقه ومن يجلو عليه آماله ثم يقوده إليها . وأن الآخرين لم يتيسر لهم فى حياتهم ما تيسر لذلك الشعب السعيد .

ولدينا فى مصر دليل يؤيد ما أذهب اليه وهو ما نراه ونلمسه فى بعض الأفراد من قوة ذاتية لم تهذب حتى أصبحت من أول ما يبعث على الشكوى . وهذه القوة ذاتها هى دليل مادى على أن الهوان ليس طبيعة مطردة فى نفس الشعب وأساس صالح كل الصلاحية لتحويله إلى شعب يعرف قدر نفسه ولا يرضى أن يعيش بين أخلاف التاريخ

التناسق بينهم وعدم تهذيب ما تطرف من طباعهم قد قتل هـذا التفوق وستره وجعل القوة الفردية فى اتجاه متضاد تدفع كل قوة أختها فتحطم أو تقف وبذلك أصبحت القوة سببا من أسباب العدوان وكان الأصل فيها أن تنهض بالشعب على أساس من التعاون المشترك يضاعف أثر الفرد لنفسه وللناس "والمرء قليل بنفسه كثير باخوانه".

ثم ماذا ؟

ثم الفقر ، ولست أرانى بحاجة للحديث الكثير عن الفقر وصحيفة الشؤون الاجتماعية ذاتها معرض لصور هـذا الفقر التى يرسمها بيان الواصفين حين ينقلون صور حياتنا المصرية فى الريف أو فى المدن .

ولست أدرى كيف يمكن للجائع أن يفكر فى العزة والكرامة ويحب شؤون الجماعة والنظر فى القومية والتمهيد للحياة القوية وهو لا يكاد يشعر إلا بشىء واحد هو لذع الجوع ولا يقدر غير شىء واحد هو هم الحياة .

ذكرت تقريرات السجون أن نسبة كبيرة من الجرائم دافعها الأول إنما هو الفقر وفى اعتبارى أن هـذا النوع من الجريمة لم يقترفه من سجن فيه ولكن مقترفه الحقيقى هو هـذا الاجتماع الذى أخطأ فى حق الفقير فأخطأ الفقير فى حقه "وجزاء سيئة سيئة مثلها".

وماذا يمكن له أن يفعل وقد سدت أمامه السبل والتوت وتعقدت وحياة السجون خير من حياة تقذف بذلك البائس من أفريز إلى أفريز وتسلمه من هم الجوع إلى هم الكسوة إلى هم الإحساس بالفرق الكبير بينه و بين من يراهم من الأحياء .

هو الفقر أولا وقبل كل شىء داؤنا المتمكن الذى إذا أصلح وعولج صلح بصلاحه كل ما اعتورنا من فساد . ولست أطلب بذلك عجبا فأنا أريد الفقر الصالح المهذب المعقول . أريد فقر الكماليات التى تحتل المرتبة الثانية من لوازم الحياة لا هذا الفقر المطبق الذى يحرم صاحبه الكفاف من العيش والمرقعة يستر بها الجسد ويدفع بها غوائل الطبيعة بحرها وبردها والآن أين السبيل الذى ينهض بنا إلى تحقيق فضيلة القوة هذه ؟

أكاد أومن أن شطرا كبيرا من ذلك يقع على كاهل الجمهور قبل أن يقع على كاهل الحكومة التى أثقلها الشعب بكل شىء فأرادها حاضنة ومربية وطبيبا وساعيا للعيش ورمى على عاتقها بكل أثقاله .

ولوساير الشعب الحكومة وأحس أصحاب الرأى فيه بواجبهم لأمكن أن تنهض بهم إذ كيف تستطيع الحكومة أن تنهض بشعب لا يريد أن يساير النهضة .

وأصحاب الرأى والكتاب هم من تقع عليهم تبعة هذا التطور فهم وحدهم الذين يستطيعون أن يصوروا للشعب الحياة الكريمة ويحفزوه إلى النهوض . وإذا كانت الكثرة الكثيرة من الشعب لم يفلح التعليم فى خلق ملكة القراءة فيها فان واجب المصلحين يتحول إلى الدخول إلى مسارب الأهواء فى النفوس وتحسس مكامن الهوى فى القلوب حتى يمكن أن ينفذ الإصلاح الخلق اليها عن طريق أهوائها ونزعاتها . وأنجح الوسائل لهذا الغرض تصوير المعانى الخلقية فى قصة تبين مقدار ما ينتج عن الفضيلة من خير فتندفع اليه ، فكل قارئ للقصة يضع نفسه موضع شخصية خاصة من شخصياتها فهو يحس بإحساسها ويفكر بعقلها .

ولدينا فى مصر مؤلفون بارعون وقصصيون من الطراز الأول لو وضعوا فى أذهانهم أنهم بقصصهم يعالجون مرض الشعب لكانوا أعظم أساة الاجتماع .

أما وسائل إذاعة هذه القصص فالتمثيل والسينما . ولكنهما لا تزالان وسيلة من وسائل التسلية الرخيصة عن طريق تملق عواطف الشعب واستجداء ضحك الجمهور ، ولو كان فى ذلك هدم لبعض وسائل النهوض ، أما كتابنا فلا تزال أذهانهم مشغولة بأمور هى أبعد ما تكون عن حاجة العصر فهل لهم أن يتجهوا للاصلاح الاجتماعى ويتعاونوا مع الحكومة عليه ، فيتعاون الكتاب والحكومة على خلق مجد الشعب الجديد وهل آن لهم أن يكتووا بنار الإحساس بالخطب ليدرأوه .

لنا آمال فمتى يسعدنا بتحقيقها الزمن ؟

مصطفى الصاوى